تونس

(١)

ذهبت إلى تونس ثلاث مرات، فى مارس ٢٠٠٣، ثم فـى مـايو وأكتوبر٢٠٠٤، مدعوًا فى المرات الثلاث مـن المكتـب التربـوى (بيداجوجى) التابع لسفارة فرنسا فى تونس، لحضور دورات دراسية خاصة باللغة العربية، وذلك حيث إننى كنت أعمـل مدرسًـا للغـة العربية، فى مدرسة القنصلية الفرنسية بالمعادى. كانت مدة كل دورة حوالى أسبوع، وكانت الموضوعات التى دارت حولها تلك الـدورات تتعلق بطرق تدريس اللغة العربية الفصحى والعامية، وبأساليب تبسيط دراسة قواعد اللغة العربية، وبالأساليب المختلفة لتقييم أداء التلاميـذ فى امتحان البكالوريا الفرنسية، وكذلك بدور الثقافـة العربيـة فـى فصول تدريس اللغة العربية.

فى المطار يسألك موظف الجوازات عن اسم أبيك، وعن بلد أبيك، ثم يبحث فى حقيبة يدك عن الكتـب والمطبوعـات التـى تحملهـا، ويستخرج بعضها بشكل عشوائى لينظر فى العنوان، وكنت قد حملت معى فى حقيبة يدى فى مايو ٢٠٠٤، حوالى عشرين نسخة من كتابى الأول (القارئ الفضى) لإهدائها إلى الزملاء التوانسة، مما أثار لـدى موظف الجوازات الشك والريبة فىّ، وقد تبادل الموظفون النظر فـى صفحات الكتاب، وإعادة النظر إلى وجهى وإلى الصورة الموجـودة فى الباسبور، ولم يكن أحد مقتنعًا تمامًا بأن الكتاب فى النقد الأدبـى. وسُمح لى بالدخول فقط بسبب أننى كنـت أدخـل تـونس بباسـبور فرنسى، فلو أنه كان قد رأى باسبورى المصرى، لما كان فى الغالب

قد سمح لى بالدخول.

في ساحة المطار يتقدم إليك عدد من سائقى التاكسيات، وذلك لمعرفة وجهتك، وللاتفاق فيما بينهم على اختيار ذلك الذى سيصحبك إلى وجهتك، بحيث يتفق ذلك مع عودة السائق إلى منزله، وذلك بدون شجار أو صياح كما يحدث عندنا فى مطار القاهرة عندما يتنازعك السائقون، كما أن السائق التونسى أكثر اعتزازًا بنفسه، فهو لا يتحدث إليك إلا إذا بدأت أنت بالتحدث إليه، ليس كما يحدث عندنا فى القاهرة عندما يتطاول عليك السائق باستنطاع، طالبًا منك أن تقص عليه تفاصيل سفرك فى ذهابك وعودتك، ثم إن السائق التونسى مهندم، أى أنه يرتدى ملابس لائقة، ثم إنه أكثر ثقافة من زميله المصرى، إذ إنه يمكن أن يتحدث معك بالفرنسية إن أردت، أو على الأقل بالعربية الفصحى، وهذا دليل أكيد على أن التعليم العام فى تونس أفضل حالا بكثير من التعليم العام فى مصر.

فى الطريق من المطار إلى داخل العاصمة، حيث أقمت أنا وزملائى فى فنادق مختلفة، نلاحظ ما يدل على وجود مظاهر الداء العربى، آفة عبادة الفرد، لوحات ضخمة جدًا لرئيس الجمهورية ذى الشباب الدائم والبسمة الوضاءة، فى كل مكان تصحبها عبارات دعائية غريبة. كما أن التواجد الأمنى واضح فى كل مكان، كما هو الحال فى مصر، حيث تجد عربات الشرطة فى أركان الشوارع، والحرس أمام المبانى العامة والسفارات، فهم يخافون من الإرهاب مثلنا تمامًا فى مصر، خاصة منذ ضرب المعبد اليهودى فى جزيرة "جربا Djerba"، والتى تعتبر واحدة من أهم مراكز السياحة الترفيهية فى تونس.

إلا أن تونس مدينة جميلة جدًا، فمبانيها كلها تقريبًا بيضاء اللون، ونوافذها كلها تقريبًا زرقاء اللون، وفى أغلب واجهات المبانى توجد عناصر زخرفية من السراميك الأزرق والأبيض والأحمر، مستوحاة

من الفن الإسلامى، ثم إن هناك مساحات خضراء شاسعة منتشرة فى كل مكان، وكذلك فإن النظافة جديرة بالاحترام، فأنت لا تجد أكوام الزبالة فى أركان الشوارع كما يحدث عندنا فى القاهرة، وهذا دليل أكيد على أن التوانسة يحبون بلدهم وينتمون إليه، وكذلك فقد لاحظت احترام إشارات المرور، ووجود أماكن مخصصة لعبور المشاة تحترمها السيارات. شئ مؤسف حقًا محاولة المقارنة بين القاهرة وبين أى مدينة عربية أخرى، ناهيك عن محاولة مقارنتها بأى مدينة أوروبية أو آسيوية.

(٢)

كنت فى منتصف التسعينيات قد بدأت فى حب تونس، وذلك عندما شاهدت على القنوات الفضائية الفرنسية، برامج تسجيلية عنها، خاصة تلك السهرة التونسية التى قدمها (فريدريك ميتران) وهو ابن أخ الرئيس الفرنسى السابق، والذى كان قد أقام فى العاصمة التونسية عدة سنوات، حيث شاهدنا لقطات جميلة جدًا لمبانى تونس العاصمة، والتى يعود أغلبها إلى أوائل القرن العشرين، وكانت قد بناها الفرنسيون تحت الاحتلال الفرنسى لتونس، والتى ما تزال موجودة فى حالة حفظ جيدة، مثل أوبرا تونس، وكاتدرائية وسط العاصمة، وبعض المبانى الإدارية الأخرى.

وكذلك هناك لقطات جميلة لقصبة العاصمة، قلب المدينة التاريخى، المدينة القديمة التى ما تزال تحتفظ بأسوارها ودروبها وقصورها ومساجدها، مثل مسجد "الزيتونة"، جدير بالذكر أن تلك المدينة القديمة لا تدخلها السيارات، وإنما هى مخصصة للمشاة فقط. أتساءل: ماذا فعلنا بقاهرة العصور الوسطى، القاهرة الفاطمية المملوكية، فالمساجد تتهاوى، والقصور قد اختفت تمامًا بالهدم والبناء فوقها، والقيساريات

والوكالات بدأنا فى الاهتمام بها فقط فى مرحلة متأخرة.

وقد تعمدت زيارة أحد الأحياء الشعبية الموجود فى قلب العاصمة التونسية، وهو حى "الحلفاويين"، والذى دارت فيه وقائع ومناظر فيلم (عصفور السطح) للمخرج فريد بوغدير، والذى تم عرضه فى أحد مهرجانات السينما بالقاهرة، ثم شاهدته من جديد على القناة الفرنسية، ويشير عنوان الفيلم إلى الطفل الذى كان يتنقل كالعصفور طائرًا بين أسطح منازل الحى، وهو الفيلم الذى يعتبر رسالة حب جميلة من مخرجه إلى مدينة تونس.

(٣)

فى مارس ٢٠٠٣ كنا نقيم فى نزل (جمارت Gamarth)، وهى منطقة تقع على بعد حوالى ثلاثة كيلو مترات شمال منطقة المرسى، أو على بعد حوالى ٢٠كم من وسط العاصمة تونس. وكان الجو باردًا جدًا، وتقريبًا لم تتوقف السماء لحظة واحدة عن هطول الأمطار. وكان الفندق يقع على مستوى مرتفع عن سطح البحر، إلا أن بينه وبين مستوى شاطئ البحر، كان هناك مستوى ثالث تشغله حديقة الفندق وحمام السباحة. وفى الليلة الأولى لى فى هذا الفندق، استمعت فى حجرتى إلى صوت موسيقى تونسية وغناء تونسى، قادمين من مكان ما، خرجت إلى ممر الحجرات، ومنه إلى قاعة الاستقبال فى الفندق، سألت فقالوا (هناك عُرس فى صالة الاحتفالات بالفندق). ذهبت إلى باب تلك الصالة وأطللت برأسى، فوقع بصرى على شخص يقف بالباب مرتديًا حلة ورباط عنق، قال (تفضل يا أستاذ). دخلت وجلست، فجاءتنى المأكولات والمشروبات الكحولية (التوانسة فى غاية الكرم)، خاصة عندما عرف أهل العُرس أننى مصرى، لدرجة أنهم قد حيّونى أنا شخصيًا بالميكرفون أثناء الاحتفال. ثم

جاءت الفقرة الغنائية التى تمثل ذروة السهرة، وفوجئت بأن المغنى هو (لطفى بوشناق)، وهو واحد من أهم مطربى تونس، وكنت قد حضرت له عرضًا فى مهرجان الموسيقى العربية بأوبرا القاهرة قبلها بعام، ويبدو أنه كان يمت بصلة قرابة أو صداقة لأهل العُرس (أفضل استعمال كلمة أهل الفرح، أو أهل الزفاف، خوفًا من أن تسقط الضمّة من فوق حرف العين أثناء الطباعة).

بقيت ساهرًا معهم حتى الخامسة صباحًا، وأنا أتناسى أنه ينبغى علىّ الاستيقاظ السابعة صباحًا، للذهاب إلى حضور ندوة عن تدريس اللغة العربية. عند نهاية الحفل قلت لنفسى ليس هناك أفضل من غُطس فى ماء البحر المثلج، وذلك حتى أفيق تمامًا، خرجت من حجرتى التى كانت تطل على حديقة الفندق، وذهبت إلى مستوى شاطئ البحر لأجد أن الشاطئ كان مغلقًا بسور حديدى، له بوابات حديدية، وكان الشاطئ وكذلك كانت الحديقة خاليين تمامًا من البشر، ورغم برودة الجو فقد ارتديت ثياب السباحة (المايوه)، ورغم سنواتى الخمسين فقد قفزت فوق السور الحديدى وسبحت فى مياه البحر الهائج. بعد دقائق ظهر أحد حراس الشاطئ وأشار إلىّ بيده بعلامة تدل على ضرورة الخروج من المياه، فخرجت وسألته ماذا يريد، فأجاب (إن الشاطئ غير مراقب) وكان يتحدث إلىّ بالفرنسية فأجبته بالفرنسية (ماذا تقصد؟) قال (أنت المسئول الوحيد عن سلامتك) قلت (وهل هناك أخطار ما؟) قال (البحر) قلت (قبلت المسئولية)، وقد بقيت فى المياه حتى موعد شروق الشمس.

أما فى مايو ٢٠٠٤ فقد أقمنا فى وسط المدينة، فى فندق (كارلتون) الذى يقع فى شارع (الحبيب بورقيبة)، وذلك مما أتاح لى فرصة التردد العديد من المرات، وخلال أيام متتالية، على كل مكتبات المنطقة (سحنون – النبع الصافى – مكتبة الكتاب)، وقد

وجدت العديد من المؤلفات التي يستحيل العثور عليها في القاهرة، بسبب محظورات رقابية، وبالتالي فقد اعتقدت أن المناخ الثقافي السياسي في تونس أكثر انفتاحًا عما هو عليه الحال في القاهرة. إلا أنني سرعان ما غيرت رأيي، وذلك عندما ذهبت بعد زيارة تلك المكتبات إلى أحد محلات السوبر ماركت المعروفة في تونس وهي محلات (مونوبري)، وهي فرع من المحلات الشهيرة في فرنسا، وقد فوجئت فعلا بتواضع مستوى المعروضات، وبتواضع أسلوب العرض، وذلك بالمقارنة بأي سوبر ماركت في القاهرة. وحيث إنني كنت مدعوًا على العشاء لدى بعض الزملاء، فقد فكرت في شراء زجاجة نبيذ تونسي. فوجئت بأن قسم الخمور داخل السوبر ماركت محاط بسياج حديدي من الأرض إلى السقف، وأنه للدخول إلى هذا القسم يجب المرور بباب ضيق جدًا يقف عليه حارس ضخم الجثة، لا يسمح في الغالب للتوانسة من أهل البلد بالمرور، وإنما يأخذ منهم نقودهم ويسلمهم الزجاجات، أما أنا وقد كنت بصحبة بعض الفرنسيين فقد تمكننا من الدخول. لاحظت كذلك أن كل أولئك الذين يشترون زجاجات خمر، يخفونها فورًا في حقائب صغيرة يحملونها على أكتافهم، وأنهم يغادرون المحل فورًا من باب جانبي، أي أنهم لا يعودون إلى المرور من الباب الرئيسي. من كل هذا أدركت أن المسألة يحيط بها قدر كبير من الحساسية أكثر مما يحدث لدينا في مصر.

دلتا النيل

(١)

تحرك القطار من دمياط فى موعده تمامًا، الواحدة والربع بعد الظهر، وليس هناك إلا ثلاثة ركاب فى عربة الدرجة الثانية المكيفة، وهذا القطار بدون درجة أولى، إلا أن هناك كذلك درجة ثانية عادية غير مكيفة وكذلك درجة ثالثة مقاعدها خشبية. عند الخروج من مدينة دمياط، وبامتداد الطريق السريع بطول حوالى ٣ كم، تم إنشاء سور بمحاذاة شريط السكة الحديد بارتفاع عربة القطار، ولكن هناك فراغات فى هذا السور تستطيع من خلالها وأنت جالس فى عربة القطار، أن تكتشف أن خلف هذا السور حيث تنتشر المساكن العشوائية، يلقى السكان بمخلفاتهم (زبالتهم) فى كل مكان، وكأن هذا السور ليس إلا لإخفاء هذه المخلفات. متى تقوم المحليات بدورها فى الجمع الدورى المنظم لزبالة المناطق الشعبية العشوائية؟، بالإضافة إلى ذلك فإن سقوط المطر خلال فصل الشتاء فى المناطق الساحلية (مثلا فى دمياط والمدن الصغيرة المحيطة بها) على تلك الأكوام من الزبالة، يؤدى بها إلى التعفن، مما يؤدى إلى انتشار الميكروبات والأمراض، وكذلك إلى جذب المزيد من الحشرات والقوارض، فى سلسلة لا نهائية من الحلقات المفرغة. يلجأ السكان أحيانًا إلى حرق الزبالة للتخلص منها وذلك بعد أن تكون قد تراكمت خلال الأيام والأسابيع والشهور. ألم يحض الإسلام على النظافة ؟ ثم كيف يتخلص هؤلاء السكان المساكين من زبالتهم إذا لم تكلف المحليات نفسها بجمعها ؟ قد يلقونها أحيانًا فى الترع، نعم قد يتخلص الناس

أحيانًا من الزبالة بإلقائها فى الترعة، ولكن وحيث إنهم لا يستطيعون أن يحصلوا داخل منازلهم على كمية الماء الكافية لاحتياجاتهم المختلفة، فإنهم يضطرون أحيانًا إلى شرب الماء من نفس الترعة، والاستحمام فيها وغسل ملابسهم وأوانيهم فيها. أليس هناك حدّ أدنى من الإدراك للعواقب الوخيمة لهذه العادات السيئة؟

يمر القطار بعد ذلك بمدينة اسمها (كفر البطيخ)، وأنا لا أعرف حقيقة إن كانت مدينة أم قرية ؟ وما هى حاليًا الشروط التى تتحول بها القرية إلى مدينة؟ هل يكون هناك حد أدنى من السكان ؟ وفى هذه الحالة ما هو هذا الحد الأدنى؟ وبعد ذلك ما هى المزايا التى تتمتع بها هذه القرية إذا تحولت إلى مدينة ؟ لم يتوقف القطار على رصيف محطة كفر البطيخ، أنا أعتقد الآن إنها ما زالت قرية، ألمح من مكانى فى عربة القطار إعلانًا مكتوبًا على قطعة قماش (افتتاح إنترنت كافيه حكاية)! حتى فى كفر البطيخ، والتى لا نعرف إن كانت مدينة أو قرية. أتذكر بالمناسبة السيدة التى تعمل لدىّ فى المنزل (فى المطبخ وفى النظافة) عندما أرادت أن تأخذ سلفة بضمان مرتبها، وذلك لتشارك أختها فى شراء كمبيوتر، تدخلان به كشريكتين فى إنترنت كافيه بحى البساتين فى القاهرة! هل سيتمكن الكمبيوتر فعلا يومًا ما من تغيير عقلية البشر فى مصر؟

يخرج القطار الآن إلى حقول القمح والبرسيم وأشجار النخيل، نحن فى منتصف ديسمبر ووجود السحب المنخفضة يضيف بعدًا جماليًا إلى منظر السماء فى ريف شمال الدلتا. ولكن من الملاحظ أنه يندر أن ترى آلات ميكنة زراعية حديثة فى الريف المصرى بشكل عام، مازالت عمليات الزراعة والرى وجنى المحصول تتم بطرق يدوية بدائية إلا فيما ندر، هى مناطق زراعات تقليدية، كيف يمكننا أن ننافس الدول المنتجة للمحصولات الزراعية إذا لم نتمكن من

تطبيق الميكنة الزراعية ؟

أرى الآن فى الأفق مضارب خيام يقيم فيها بدو رعاة غنم يرتحلون مع قطعانهم بين مناطق النباتات البرية (مناطق البرارى)، وهى المناطق التى تقع فى شمال الدلتا، خاصة حول سواحل بحيرة البرلس، وكذلك إلى حد ما حول سواحل بحيرة المنزلة، هم يذهبون إلى الأسواق فى المدن والقرى لبيع أغنامهم ومعيزهم أو لبيع منتجات هذه الأغنام بشكل عام، الألبان والجبن والصوف والمنسوجات المشغولة من خيوط الصوف ووبر الحيوانات، أو يمارسون المقايضة، أى يستبدلون حاجاتهم من غذاء وكساء بهذه المنتجات. من أى أصول عرقية يأتى هؤلاء البدو ؟ لمحت الآن بعض البدويات اللائى يغطين وجوههن تمامًا بملاءات سوداء، وذلك رغم ارتدائهن جلابيات حمراء مزركشة! أتذكر أغنية عبد الوهاب التى قال فيها (ماحلاها – ما أحلاها – عيشة الفلاح، متهنى وباله مرتاح). هل صحيح أن الحياة الريفية أفضل للصحة النفسية من حياة المدينة وذلك حيث إن الحياة فى الغيطان الخضراء تبهج القلب ؟

(٢)

يدخل القطار محطة كفر سعد، ألاحظ وقوف مئات من الطلبة على رصيف المحطة، ينتظرونه للذهاب به إلى المنصورة غالبًا، كفر سعد تقع تقريبًا فى منتصف المسافة بين دمياط والمنصورة. دخل بعض هؤلاء الطلبة معنا فى عربة الدرجة الثانية المكيفة، وجاء خلفهم المفتش فورًا للتفتيش على التذاكر، ولاحظت من النافذة دخول بعض هؤلاء الطلبة إلى عربة الدرجة الثانية العادية غير المكيفة (وهى فى واقع الأمر بها تكييف طبيعى إذ إن لا نوافذ لها)، إلا أن أغلبية الطلبة والطالبات كانوا قد دخلوا إلى عربات الدرجة الثالثة ذات المقاعد

الخشبية. يتضح من ذلك التوزيع الطبقى لسكان هذه المنطقة من ريف شمال شرق الدلتا. نزل بعض هؤلاء الطلبة فى مدينة اسمها (شربين)، وهى على بعد حوالى ١٠ كم من كفر سعد، ولمحت من نافذة القطار مبانى تقع غير بعيد من شريط القطار تحمل يافطات تقول أنها معاهد عليا للزراعة والتجارة (المعهد العالى الزراعى بشربين مثلا).

رنّ الجرس فتحرك القطار، وخرج ناظر المحطة من مكتبه المتواضع بملابسه المهلهلة، يتابع بعينيه خروج القطار من محطة شربين، تبدو المقاعد الخشبية فى المحطة، والمظلات الخشبية فوقها، كما لو كانت تعود إلى زمن إنشاء المحطة تحت الاحتلال البريطانى، لاحظت كذلك قذارة رصيف المحطة، إذ تنتشر عليه بقايا قشر البرتقال الذى أكله البشر، وكذلك الأكياس الورقية الخالية للبطاطس التى أكلها البشر، وكذلك بقايا أعواد البرسيم التى أكلتها الحيوانات. ثم لمحت كذلك من نافذة القطار بعد أن خرج من المحطة، السيارات الصغيرة (الميكروباص) والتى تنتظر لنقل الناس – ركاب القطار الذين نزلوا فى شربين – إلى المناطق الريفية المحيطة بمدينة شربين. كل تلك السيارات كانت تكسوها طبقة من الطين وذلك بسبب أمطار الأمس الغزيرة.

هناك بعض ملامح الحضارة الحديثة، والتى تتضح فى وجود عدد من الكبارى الحديثة التى تمر فوق شريط السكة الحديد لنقل السيارات من جهة إلى أخرى، وذلك بدلا من الانتظار أمام كل تلك المزلقانات التى يمر بها القطار. هناك كذلك مبانٍ حديثة عليها لافتات تدل على أنها تتبع مشروعات الصرف الصحى فى القرى المختلفة. إذن فإن هناك بعض المجهودات الجادة التى تبذلها بعض الجهات الحكومية لتحسين أوضاع المعيشة لسكان هذه المناطق. جاء الآن مفتش القطار

وطلب منى التذكرة ليطلع عليها، كان لطيفًا بشوشًا وحياني بوجه مبتسم قائلا (صباح الخير يا باشا)، وبعد أن خط بالقلم على التذكرة، شكرني وتمنى لي رحلة سعيدة وسلامة الوصول. جاء الآن مهندس القطار ومعه مساعده وجلسا في مقاعد قريبة من المقعد الذى أشغله، واستمعت إلى حوار يدور بينهما حول ضرورة مرور حفّار على كوبرى قديم، وذلك حيث إن هذا الحفار يتجه إلى مكان ما لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بالمرور على هذا الكوبرى القديم، وفهمت أن المساعد يخشى انهيار الكوبرى، إلا أن المهندس رد عليه قائلا (خليها على الله، ربنا سبحانه وتعالى حا يسترها معانا)، تعجبت مما سمعت، أين هى العقلية العلمية التى يجب أن يتحلى بها هذا المهندس ؟ ولمن ترك إذن العقلية العلمية واختار هو العقلية التواكلية وهو المهندس الذى درس فى الجامعة؟ أم أنه يمكن للمرء أن يصبح مهندسًا فى السكة الحديد دون الذهاب إلى الجامعة؟

دخل القطار الآن إلى مدينة المنصورة، وذلك بعد أن عبر الكوبرى فوق فرع دمياط، هذا الكوبرى يشبه كثيرًا كوبرى أبى العلا القديم الذى كان يربط الزمالك بحى أبى العلا، أثناء عبورنا النيل لاحظت أن هناك عددًا كبيرًا من الأبراج السكنية التى تقع على ضفة النيل فى مدينة المنصورة، وذلك مما يعطيها منظر مدينة حديثة. فى محطة قطار المنصورة يمكنك أن ترى (مدرسة العائلة المقدسة للفتيات المسيحيات) وهو مبنى قديم يبدو أنه من أوائل القرن العشرين، ولكنه معتنى به إذ يبدو نظيفًا، وعلى بعد خطوات منه يوجد (مجمع المدارس الإسلامية) (حضانة الفردوس الإسلامية) (المدرسة المحمدية الإسلامية) (جمعية الحفاظ على القرآن الكريم). الرصيف عليه مئات الطلبة، كل الصبيان يرتدون الملابس الحديثة، وكل الفتيات محجبات، لماذا هذه التفرقة بين الصبيان والبنات ؟

عند المرور بمدينة طلخا تفوح رائحة الأسمدة العضوية فى الجو، قادمة من جهة مصانع الأسمدة العضوية التى تقع خارج مدينة طلخا، الغريب أن هذه الرائحة تخترق الزجاج المزدوج لنافذة القطار. كانت العربة قد ازدحمت بالركاب في مدينة المنصورة، وفتح الباب الذى يفصل العربة عن مكان دورة المياه، ففاحت رائحة البول القادمة من جهة دورة المياه، ثم رأيت فأرًا صغيرًا يحاول أن يختبئ فى فتحة موجودة بجدار عربة القطار، وهذا لا يعطى ثقة كاملة فى مستوى نظافة القطار.

يتوقف القطار الآن فى محطة مدينة سمنود، وكانت فى نهاية العصر الفرعونى فى القرن السابع قبل الميلاد عاصمة للدلتا، وكانت تعرف وقتها باسم (سيبينيتوس)، تبدو منازل هذه المدينة كلها حاليًا كما لو كانت آيلة للسقوط، كما أنى لم أتمكن من رؤية أى أثر لأى لون أخضر داخل المدينة، لا شجر ولا حشائش، والتراب يغطى واجهات المنازل، ويبدو ذلك واضحًا فى الإعلانات التى اختفت ملامح حروفها خلف طبقة التراب، صحيح أننا ابتعدنا عن منطقة شمال الدلتا الممطرة حيث يساهم المطر أحيانًا فى نظافة المبانى، ولكن إذا لم يقم المطر بهذا الدور ألا يقوم به السكان ؟

لاحظت كذلك وجود عشرات السيارات الصغيرة، التى هى أقرب إلى الدراجة البخارية بمقعد خلفى لاثنين من الركاب، أتذكر أننى كنت قد قرأت مقالا عن توزيع هذه السيارات الصغيرة، بمقدم ثمن رمزى على الشباب الذى يبحث عن مشروع صغير، يستطيع أن يحصل منه على دخل مناسب، وكذلك يساهم فى حل جزء من مشكلة المواصلات داخل المدن الصغيرة.

(٣)

يصل القطار الآن إلى المحلة الكبرى، لحظة خروج آلاف العمال من مصانع الغزل والنسيج، وتبدو الصورة كما لو أن كل سكان المحلة يعملون فى هذه المصانع. كم كان طلعت حرب بعيد النظر عندما أنشأ هذا المشروع العملاق سنة ١٩٢٧، وهو المشروع الذى ما يزال بعد كل هذه السنوات، أحد أكبر مجمّعات مصانع الغزل والنسيج فى مصر كلها. الشباب فى القطار يغنى ويرقص، وذلك رغم الزحام والقذارة ورائحة البول، والفتيات الجالسات على مقاعد أرصفة المحطات فى المحلة الكبرى، وفى محلة روح وفى طنطا، وجوههن كلها ضاحكة، أو على الأقل باسمة، وذلك رغم الفقر والتخلف. يبدو أن مسألة (القناعة كنز لا يفنى) مسألة صحيحة، فإن هؤلاء البشر رغم كل شئ يبدون سعداء، وصدق أيضًا من قال إن السعادة والتعاسة هما حالتان نفسيتان، وأنهما لا صلة لهما بالغنى والفقر (واللذان يعبران عن الحالة الاقتصادية).

كلمة أخيرة تبدو لى ضرورية، وهى أننى قد عبرت سماء الدلتا بالطائرات، ذهابًا إلى أوروبا، وإيابًا منها مرّات عديدة، وفى كل مرة كنت أرى كل الدلائل التى تؤكد أن الصورة ليست بالقتامة التى قد تبدو بها أحيانًا، فمن السماء، من ارتفاع ١٠كم، تبدو الدلتا منظمة، إذ يبدو بوضوح أنها مقسمة إلى مساحات منتظمة، فى أشكال هندسية واضحة، ومن درجات مختلفة من اللون الأخضر، وهى محاصيل الحقول، والتى تفصل بينها خطوط سوداء، تعبر عن الطرق الأسفلتية المستقيمة، وخطوط أخرى تلمع إذا سقطت عليها أشعة الشمس، وهى القنوات المائية، كل ذلك من حقول وطرق وقنوات ينتظم فى شبكة متقنة تتوازى وتتماس وتتقاطع، فى أشكال هندسية جميلة، مما قد يوحى إلى الناظر من هذا الارتفاع أنه فى سبيله إلى زيارة بلد حديث.

دمنهور

كان جدى لأمى من مواليد مدينة السنبلاوين بمديرية الدقهلية (محافظة حاليًا) سنة ١٨٩٥، وتخرج فى مدرسة الطب (كلية حاليًا) سنة ١٩١٨، عندما كانت الدفعة لا تتعدى أربعين طالبًا (أربعة آلاف حاليًا)!!! عمل طبيبًا فى نظارة الصحة (وزارة حاليًا) وكان مضطرًا إلى التنقل بين الأقاليم للعمل فى المستشفيات الأميرية (الحكومية حاليًا) ولم يكن فى حاجة إلى فتح عيادة!! وذلك لأن مرتبه من الحكومة كان يكفيه وزيادة!! عشرة جنيهات فى الشهر (بما يساوى وقتها عشرة جنيهات ذهبية!!! ثمن جنيه الذهب حاليًا ٤٠٠ جنيه أى أن مرتب جدى وقتها يساوى حاليًا أربعة آلاف جنيهًا مصريًا!!!) ملحوظة اعتراضية: مرتب خريج الطب حاليًا بكل بدلاته لا يتعدى ٢٠٠ جنيه!!!

المهم نعود إلى جدى الذى بدأ (وبفضل رخاء العيش) فى البحث عن زوجة وذلك لأن عمره كان قد بلغ الثالثة والثلاثين سنة ١٩٢٨، وتصادف أن كان وقتها يعمل فى مستشفى مدينة سوهاج الأميرى (وكانت تسمى مبرة – من البر) وهكذا سأل عن عائلات المدينة حتى وصل إلى عائلة جدتى وتقدم لخطبتها، وتزوجا وأنجبا أمى سنة ١٩٣٠، وكان ما يزال يعمل فى سوهاج، ثم استأنف التنقل بين مدن الصعيد (أسيوط – قنا– أسوان) حتى رضى عنه رؤساؤه فانتقل إلى مدن وجه بحرى وترقى فى السلك الوظيفى وذلك ليحصل على لقب حكيمباشى المستشفى (وهى كلمة تتكون من كلمتين حكيم – من الحكمة وهى التسمية التى أطلقها المصريون على الأطباء منذ العصر

الفرعونى – وكلمة باشا الغنية عن التعريف والتى نطلقها الآن على كل من هبّ ودبّ انتقامًا من الباشوات الحقيقيين فى الزمن الماضى) وهى تعنى حاليًا كبير أطباء المستشفى .استقر مع أسرته، زوجته وبناته، فى دمنهور منذ سنة ١٩٤٢ وحتى خروجه إلى المعاش سنة ١٩٥٥، عندها فقط – عند انتهاء دوره الرسمى وعمله الحكومى – افتتح عيادة فى أحد أفقر أحياء دمنهور الشعبية!! ويبدو أنه حتى ذلك الوقت كان معاشه الذى يقبضه من الحكومة كافيًا! إذ إنه كان يعالج الفقراء فى عيادته بالمجان!!!

روض الفرج

(١)

لا أعرف من هو الفنان الفيلسوف الذى أطلق هذا الاسم على هذا الحى من أحياء القاهرة، وهو فى الواقع من أجمل أسماء تلك الأحياء على الإطلاق، ويمكن ببساطة إدراك ذلك إذا عرفنا أن الروض هو جمع الروضة أى الجنة، وأن الفرج هو الخلاص من المشاكل، ولكن ما الذى كان فى هذا الحى وأدى بأصحابه إلى إطلاق هذا الاسم عليه؟ ومتى كان ذلك؟ أنا لم أجد بعد الإجابة على هذين السؤالين.

جغرافيًا هذا الحى يقع إلى الشمال من منطقة بولاق أبى العلا، وينحصر بين نهر النيل وحى شبرا، وهو بوصفه ذلك يبدو أنه قد كان أحد الموانئ النهرية التى تصل إليها البضائع والغلال، قادمة من مدن الدلتا إلى القاهرة، عبر سبعة أفرع كانت للنيل (وذلك قبل أن تختصر إلى فرعين اثنين فقط هما دمياط ورشيد)، وما زال بهذا الحى عدد كبير من تجار الغلال والأسماك. إلا أنه كان مشهورًا كذلك بأنه موقع أكبر سوق للخضراوات والفاكهة فى القاهرة، ذلك قبل أن ينتقل إلى مدينة العبور.

كنت كثيرًا ما أذهب إلى ذلك الحى فى بداية إقامتى فى القاهرة، أى منذ منتصف السبعينيات، للبحث عن مسارح روض الفرج الشهيرة، تلك التى كانت تزخر بالحياة خلال مواسم الصيف فى أوائل القرن العشرين، نجيب الريحانى وعلى الكسار ومنيرة المهدية. ولكنى لم أعثر أبدًا على أى أثر لتلك المسارح، وذلك حتى وقعت فى قراءاتى على الإجابة على سؤالى: أين ذهبت تلك المسارح؟ والإجابة

ببساطة هى أن تلك المسارح كانت مؤقتة، فقط خلال فصل الصيف، وتقام فى سرادقات على النيل، حيث كان الجو لطيفًا فى المساء، ولكنها تزال فى الشتاء، وتخزن الأقمشة (الخيامية) والكراسى وأخشاب المنصة، حتى الصيف التالى وهكذا. وكان الناس يأتون إلى روض الفرج للنزهة، إما على مراكب فى النيل، أو فى حدائقه المطلة على النيل، ثم يقضون السهرة فى المسارح والمطاعم، ثم يعودون فى نهاية السهرة بالترام إلى أحياء القاهرة المختلفة. جاء وصف كل هذا فى العديد من أعمال الأدباء الذين كانوا أطفالا فى عشرينيات القرن العشرين.

(٢)

أنا معتاد على المشى بمتوسط يومى خمسة كيلومترات، لا يختلف فى ذلك الصيف عن الشتاء، وقد يكون ذلك نهارًا أو ليلا، ثم إننى أسير غالبًا بمحاذاة النيل، وأعبر الكبارى لأعود إلى نقطة البداية. وحيث إننى أسكن الزمالك، فإن جولاتى اليومية تلك على الأقدام وبالخطوة السريعة، تبدأ من منزلى بشارع أحمد حشمت، وتتجه أولا وفى خط شبه مستقيم إلى النيل، وعادةً ما أسير فى اتجاه فندق الماريوت، ثم أعبر كوبرى أبو العلا (حاليًا ١٥مايو)، ثم كورنيش النيل فى اتجاه مركز التجارة العالمى وفندق كونراد، ثم أعبر النيل الكبير من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية، على كوبرى سكك حديد روض الفرج إمبابة، ثم كورنيش النيل من جديد أمام قسم إمبابة، ثم معدية أو أتوبيس نهرى على النيل الصغير حتى كورنيش أبو الفدا.

كل هذا جميل إلا أننى ذات يوم وأثناء عبورى كوبرى سكك حديد إمبابة، خطر فى بالى فى منتصف الكوبرى أن أتوقف قليلا، وكنا فى يوم شتوى مشمس، وذلك لأتأمل الطبيعة الجميلة ومجرى النهر، وإذا

بى أفاجأ بيد توضع على كتفى بغلاظة!! استدرت إلى الخلف لأجد أن ذلك الذى أخرجنى من تأملاتى هو عسكرى جيش ببندقية على كتفه!! قال: ممنوع الوقوف هنا!! قلت: لماذا ؟ قال: ممنوع فقط وبدون لماذا!! قلت: وأنا لن أترك المكان إلا إذا عرفت سبب المنع! قال: دواعى أمن!! يجوز تكون إرهابى ولديك نية تدمير الكوبرى!! طبعًا للوهلة الأولى اعتقدت أنه يمزح!! ولكن تعبير وجهه الصارم أظهر أنه لا يمزح! قلت: أريد أن أرى هذا المنع مكتوبًا على يافطة ومعلقًا فى أى مكان!! قال: هذه هى الأوامر، وإذا استمر وقوفك ستكون موضع شبهات!! قلت: وكيف سأدمر الكوبرى وأنا حتى لا أحمل حقيبة يمكن أن تحتوى على متفجرات؟ ثم الأكثر اتفاقًا مع المنطق هو منع مرور السيارات التى بها حقائب ضخمة يمكن أن تحتوى متفجرات أو على الأقل تفتيشها، وأنا كما أرى فإنه لا منع مرور هناك ولا حتى تفتيش!! قال المسكين: أنا أعرف مسبقًا أننى كنت سأتعب معك، وسأذهب لأعود لك بالضابط!! وتركنى وذهب وبقيت ساعة ولم يعد!! فمشيت عائدًا إلى بيتى، تشغلنى فكرة أن مصر خلال القرون الوسطى كانت تسمى مصر "المحروسة"، وذلك لاعتقاد أهلها أن الله يحرسها، أما الآن فإن المعنى قد اختلف لوجود كل هؤلاء العسكر فى كل تلك الأماكن. كما أننى فكرت فى أنه يكفى فقط أن تعترض، وهم سيتركونك فى حالك.

الزمالك

(١)

جئت إلى الزمالك لأول مرة مع أخى الصغير، فى صحبة جدى لأمى، وكان ذلك فى أوائل الستينيات، وكان جدى ينتهز فرصة حضورنا من طنطا إلى القاهرة، ليصحبنا صباح الجمعة فى زيارات إلى الأماكن الأثرية فى القاهرة. وهكذا فإن أول زيارة قمت بها إلى المتحف المصرى كانت معه، وكذلك أول زيارة إلى مساجد السلطان حسن والرفاعى ومحمد على بالقلعة كانت معه، إلا أن زيارة الزمالك معه تظل أكثر تلك الزيارات بهجة. ركبنا الترام من العباسية إلى باب الحديد، ثم ركبنا تراماً آخر من باب الحديد إلى الزمالك، كان يسير بامتداد شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقاً)، ونزلنا فى محطة التقاطع مع حسن صبرى، لنمشى فى شارع هادئ، على رصيف ما زلت أتذكر بلاطاته الملونة (أين ذهبت؟)، إلى أن وصلنا إلى حديقة الأسماك، التى أتذكر بوضوح وجود بحيرة مياه بها (أين ذهبت؟)، أمكننا استئجار بدالات للإبحار فيها، ثم زرنا كذلك الممرات المحفورة فى الصخر داخل الجبلاية، لمشاهدة أحواض الأسماك (أين ذهبت؟).

ثم منذ أوائل السبعينيات، كنت أنتهز فرصة حضورى إلى القاهرة، بالقطار من طنطا صباح الجمعة، للذهاب إلى ملهى "صولت آند بيبر" (ملح وفلفل)، بشارع أبى الفداء، وذلك لحضور حفلات الماتينيه (من ١١ص إلى الثالثة بعد الظهر)، التى كانت تعزف بها العديد من الفرق الموسيقية الغربية، وهى فرق كان قد كونها فى ذلك الوقت الشباب المصرى، وكانت تقوم بأداء (ريبيرتوار) من الأغانى

الأوروبية والأمريكية، وكانت تلك الحفلات تجد إقبالا كبيرًا من شباب ذلك الوقت. ثم بعد الظهر أحاول زيارة أحد المعارض الفنية، الموجودة فى قصور الزمالك، تلك القصور التى كان يسكنها باشاوات ما قبل الثورة، ثم تحولت إلى متاحف فنية بعد الثورة، مثل قصر عائشة فهمى الواقع على النيل فى أول شارع المعهد السويسرى (عزيز أباظة حاليًا)، والذى يحتوى على عدة قاعات لعرض الفنون الجميلة، تحمل كلها اسم إخناتون (١-٢-٣)، وكانت هناك كذلك مجموعة "محمد محمود خليل"، فى قصره المواجه لنادى الجزيرة، وذلك قبل أن تنتقل المجموعة إلى موقعها الحالى فى الجيزة.

ثم فى أكتوبر ١٩٨٣، وذلك بعد الانتهاء من أداء كل الالتزامات المطلوبة منى، مثل الحصول على بكالوريوس الطب، وأداء الخدمة العسكرية، والانتهاء من التكليف فى القطاع الريفى التابع لوزارة الصحة، تحينت الفرصة للاشتراك فى القسم الحر بكلية الفنون الجميلة فى الزمالك، حيث تابعت الدراسة المسائية لمدة عام دراسى كامل، ثلاثة أيام فى الأسبوع من ٣م إلى ٦م، وذلك لتعلم رسم الطبيعة الصامتة، والبورتريه، والمناظر الطبيعية (لاندسكاب)، وموضوعات أخرى، وما زلت أحتفظ ببورتريه بيتهوفن، والمنقول عن تمثال نصفى من الحجر الجيرى الأبيض لهذا الموسيقار الألمانى، والمرسوم بأقلام الفحم على ورق أبيض، معلقًا على جدار فى منزلى.

وعندما تعرفت على زوجتى الفرنسية، كانت تسكن شقة مفروشة فى شارع أحمد حشمت بالزمالك، وعندما قررنا الارتباط بالزواج، بدأنا فى البحث عن شقة الزوجية، وكان إصرارها غريبًا على ضرورة أن نسكن الزمالك (يا الزمالك يا بلاش)، وذلك لأن كل صديقاتها وأصدقائها، وكذلك أغلب زميلاتها وزملائها فى شركة السياحة الفرنسية التى كانت تعمل بها، كانوا يسكنون الزمالك،

فوافقت خاصة أنه الحى الذى أحببته، وكانت لى فيه ذكريات سعيدة، وذلك رغم بوادر الشك وعلامات الريبة، التى كانت قد بدأت تبدو لى واضحة، فى أن هذا الحى لم يعد هو نفس المكان الذى عرفته قديمًا، وهكذا سكنّا شقة بدت لنا هادئة، رغم كون شرفة حجرة النوم تطـل على فناء مدرسة، ولكنها مدرسة معلمات بدت لنا أصواتهن فى الفناء جميلة ومنعشة.

(٢)

إلا أن هذا الوضع لم يكن مكتوبًا لـــه الـــدوام (دوام الحـــال مـــن المحال)، فتحولت هذه المدرسة فى العام التالى مباشرة، وبـــدون أى سابق إنذار، من مدرسة عليا للمعلمات، إلى مدرسة ثانوية تجريبيـــة مختلطة، وهكذا تم استبدال أصوات المعلمات اللطيفـــات المهـــذبات، بأصوات خشنة تنكرها الأذن، هى أصوات التلاميذ فى تلك المرحلـــة السنية، التى يحاولون فيها إثبات رجولتهم بالمظاهر الصوتية، وهكذا أصبحت تصلنا فى جميع أرجـــاء الشـــقة، أدق تفاصـــيل مباريـــاتهم الكروية، وخلافاتهم الفلسفية حول السؤال (هل الكرة جول أم لا؟)، ثم أنهم يلعبون الكرة طوال النهار، من الثامنة صباحًا إلى الثانيـــة بعـــد الظهر!!! إذن متى يذهبون إلى الفصول ؟ وقد لاحظت علـــى هـــذه المدرسة أنه فى أغلب الأيام، لم تعد هناك فصول، بالمعنى المفهـــوم لهذه الكلمة، أى جرس الحصة، وحضور المدرسين، وتتبع التلاميـــذ للدروس، يبدو أن نظرية التدريس الآن هى: متابعة التربية البدنية فى الهواء الطلق، ضاربين عرض الحائط بكل ماعدا ذلك، وهكذا يـــأتى الجميع إلى المدرسة، ليلعب الأولاد الكرة، ولـــتجلس الفتيـــات فـــى الشمس شتاءً، وفى الظل صيفًا، وقد يحضر بعض المدرســـين فـــى بعض الأحيان. إلا أن مشكلة المدرسة مقدور عليها، وذلك لأن اليـــوم المدرسى ينتهى فى الثانية بعد الظهر، وهكذا بدأت تتضح لنـــا (أنـــا وزوجتى) المشكلة الحقيقية، ألا وهى "اليمامة سنتر".

بدأ بناء المركز التجارى الذى أقيم إلى جواره فى الزمالـــك ســـنة ١٩٨٨، وكانت الأرض التى يشغلها حاليًا تخص السفارة الســـوفيتية التى كانت قد أقامت عليها ملاعب تـــنس، بيعـــت الأرض لمســـتثمر سعودى سنة ١٩٨٨ وبدأ البناء فى نفس العام، وانتهـــى البنـــاء فـــى منتصف ١٩٩٠، ولمدة عامين كان المركز التجـــارى لا يشـــغل إلا الطابقين السفليين من المبنى، وذلك على أمل تأجير بقيـــة الطوابـــق الثمانية إلى مكاتب إدارية وشركات. ولكن حيث إن هذا لم يتم، فقـــد

قررت إدارة المبنى (شركة مصرية سعودية) تأجير المبنى كله بطوابقه العشرة إلى محلات تجارية، وبالتالى قامت إدارة المبنى بإضافة السلم الكهربائى الداخلى، وعمل تعديلات فى المبنى طوال عام ١٩٩٣، بما يسمح للمبنى بالاستجابة إلى متطلبات تشغيله الجديدة. وكان ذلك العام ١٩٩٣ هو أكثر الأعوام إزعاجًا لى فى شقة الزمالك، حيث كان العمل يستمر فى التجديدات طوال الليل والنهار، وكم من مرة لم أنم فيها طوال الليل (رغم بداية استعمالى لسدادات الأذن)، وكم من مرة اتصلت فيها بقسم شرطة الجزيرة، أو بسيارة النجدة، حتى يحضر ضابط شرطة لمعاينة الضوضاء بنفسه. المشكلة الحالية هى فى كيفية تخلص هذه المحلات من قمامتها! فهم يلقون بها من النوافذ من الطوابق العاشر والتاسع والثامن من منتصف الليل وحتى الثالثة صباحًا، ثم يقومون بجمعها بالجاروف من الطابق الأرضى، حتى الساعة السادسة صباحًا فى عملية إزعاج مستمر لكل سكان العمارات المحيطة بالمركز التجارى، وباستهانة كاملة بكل حقوق البشر فى النوم أثناء الليل بدون إزعاج، كيف أن السلطات كانت قد وافقت على الترخيص بافتتاح هذا المبنى دون أن يكون لديه جهاز تجميع قمامة عصرى ؟ أسطوانة بقطر نصف متر تمر من أعلى المبنى إلى أسفله لتذهب بالقمامة مباشرة إلى عربات جمع القمامة دون قذفها من الطابق العاشر ودون جاروف. ناهيك عن مسألة تطاير هذه القمامة فى الهواء، ودخولها شرفات المنازل المحيطة بالمركز التجارى. لقد سبق لى أن أرسلت خطابًا بهذا المضمون إلى وزيرة البيئة وذلك عن طريق بريد الأهرام ولكنه لم ينشر!!! (كتبت هذه الرسالة سنة ٢٠٠٠). وقد تحسن الوضع حاليًا (٢٠٠٥) بسبب حالة الكساد الاقتصادى، التى نتج عنها غلق أغلب محلات الطوابق العليا فى اليمامة سنتر، وتحول جمع القمامة إلى جمع يدوى أثناء النهار، وصدق من قال (مصائب قوم عند قوم فوائد).